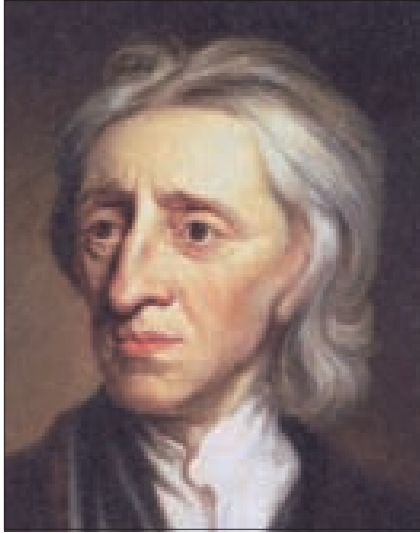


إعادة قراءة وتأمل في فكر الأنوار الأوروبيّ في زمننا الموسوم بالتعصّب والتوحّش

1/2

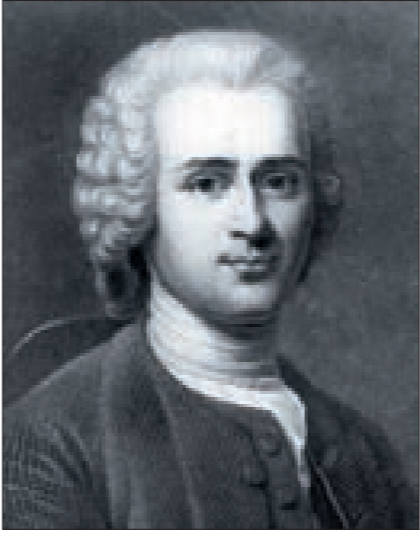
ثورة فكرية وإنسانية قامت على التسامح والمساواة والحرية والمعرفة وفصل الدين عن الدولة



جون لوك



فولتير



روسو



نيوتن



ديكارت



هيوم

كتب محمد زكريا توفيق (ميدل إيست أونلاين): قبل حلول القرن الثامن عشر، كانت الليبرالية مجرد مواقف ثقافية لبعض المفكرين، أمثال إراسموس، هس، سبينوزا وآخرين. لكن بقدوم عصر الأنوار الفرنسي أصبحت الليبرالية حركة إجتماعية واضحة. مثل الثورة ضد الإقطاع والنظام القديم وسلطة الكنيسة، قامت الليبرالية الفرنسية على الفوريهجوم على عدجبهات في آن واحد. سياسيا، طالبت بسيادة الشعب وحكومة تمثله. اقتصاديا، تبنت حرية التجارة وعدم التدخل في الصناعة. وبالنسبة إلى الدين، نشرت التسامح والمساواة والحرية والمعرفة، وفصل الدين عن الدولة. من الناحية الفلسفية، أكدت مبدأالحريةالخشبية وحرية المجتمع والتعليم المدني وحرية البحث وحرية طلب الحقيقة. لكن العنصر الأهم في حركة التنوير هو إتياها بمفهوم التقدم.

مواجهة فكر الكنيسة الأوغسطيني كان متوقعا في عصر النهضة وخلال التقدم العلمي في القرن السابع عشر. التجربة والنطق ومعرفة القوانين الطبيعية، كالحرية الكاديمية عاجية يتكونون بلغة لا يفهما أحد. كانوا أصحاب قلم وعلماء وفلاسفة وأبناء. كانوا جزءا من الحالة الإجتماعية والدينية والاقتصادية. نجحوا في خلق رأي عام بين الطبقة المتوسطة القريبة من الناس.لذلك،حين بدأوا في مهاجمة السلطة والكنيسة التفت حولهم أي أن الماضي ليس بالضرورة أفضل من الحاضر، وأن الإنسان لا يسقط من بيئانه وقلقه إلى أسفل سافلين.

رأى فلاسفة القرن الثامن عشر أن مسؤولية مغنية الأويرا الأميركية ماريا كالكاس ولدت في نيويورك لوالدين يونانيين ولدى بلوغها الثالثة عشرة انتقلت مع والديها إلى أيتنا حيث أنعت دراستها من الكادمية الموسيقية وأكملت دراستها العليا في نيويورك. ثم أنتقل الباحث في تاريخ الفن وعلم الجمال إلى السيرة الإبداعية للمخرج بازوليني ونهايته المأسوية كمتكف مبدع، إذ اغتيل سياسيا عام 1975 على خلفية أعماله السينمائية الجريئة، خاصة فيلمه الأخير «سالمو» الذي سخر فيه من أسسطة الإيطالية وزمورها الفاشية المتعلّقة بشخصيات السياسي ورجل الدين والقاضي والرسمالي الذين عملوا على تحويل البشر إلى مجرد آلات وفق أهداف وهمية لا تتركها إلا تلك الشخصيات. وأوضح بدور أن بازوليني عبر عن إبداعاته في أشكال عديدة في السينما والشعر والرواية والنقد والرسم، وكان على خلاف مع العديد من المفكرين الذين وقفوا ضده وحاربوه، ولم يكن مفكرا ملظرا ومجزّرا بل كان يكتب من خلال تجربة وجودية مباشرة ملموسة دراماتيكية جديدة، عبر أفلام أثارت ضجة لجرأتها إجتماعيا وسياسيا ودينيا ورسخت اسمه في طليعة جيل ما بعد المخرج الأشهر فليلبي. وتزامنت أعمال بازوليني السينمائية في سبعينات القرن الفائت وأبرزها «طوبو قبيحة» و«طوبو صغيرة»، و«أوديب ملكا» مع إصداراته الشعرية وروايتيه «حياة قاسية» و«أطفال الحياة».

بعد عرض لقطات من فيلم «ميديا» أوضح المحاضر أن بازوليني يميل في معظم أفلامه إلى استخدام لون الأرض، الأقرب إلى لون بشرته الجسد، لذا لا يخلو أي فيلم من أفلامه من استعراض للبيوت الطينية التي تظهر كأنها امتداد للأرض والإنسان وهو جزء من هذه الأرض. ويحرص بازوليني في معظم أفلامه على استخدام لقطات طويلة وياثورامية للوجود والمياني، كما يحرص على التنوع في الملابس واستخدام قبعات واقّعة غريبة مثل أفلامه عن المسيح وميديا وأوديب وليال عربية وغيرها، موضحا أن المخرج الإيطالي كان يعيش الشرق لثراءه اللوني لذا صور معظم أفلامه فيه، مثل سورية واليمن والهند وإيران والمغرب العربي.

أضاف بدور: «إن بازوليني يعوص بنا في أفلامه إلى عالم مفرّغ أو حالم بطرق تدبّية وغير مباشرة إذ يعتمد أسلوبيا فريدا هو الجدل، ويجعل شخصوه ترى الأمور ونراها نحن أيضا من وجهة نظرتها، ويعتمد أحيانا التوشيش على رؤيتنا للحوادث بالصور عبر الشمس وجودية يعود إلى الأفقية الثالثة قبل الميلاد، كما في مشهد قتل أوديب لأبيه وجراسه، وكما في فيلم ألف ليلة وليلة الذي ترى فيه جثتا معلقة على المشانق في الصحراء».

ختم بدور محاضرتيه بالإشارة إلى الأهمية التاريخية لقلعة حلب التي جذبت بازوليني وإمثاله للصورير فيها، إذ صنفت على لائحة مواقع التراث العالمي لليونسكو عام 1986، مؤكدا على أن قلعة حلب هي إحدى أقدم وأكبر القلاع في العالم، والتل الذي تنهض فوقه القلعة يعود إلى الأفقية الثالثة قبل الميلاد، وتعاقبت عليها العديد من الحضارات وتم مؤخرا نتيجة الحفريات توثيق معبد يعود إلى العصر البرونزي داخل القلعة وهو معبد الإله «حدد».

الدكتور نزيه بدور أستاذ في كلية العمارة في جامعة البحث وياحث في تاريخ الفن وعلم الجمال وعضو في جمعية العاديات، قاص رواياتي له وهو بطلة تراجيديات يورديس. ثم قدم المحاضر إضاءة على شخصية مغنية الأويرا الأميركية ماريا كالكاس التي ولدت في نيويورك لوالدين يونانيين ولدى بلوغها الثالثة عشرة انتقلت مع والديها إلى أيتنا حيث أنعت دراستها من الكادمية الموسيقية وأكملت دراستها العليا في نيويورك. ثم أنتقل الباحث في تاريخ الفن وعلم الجمال إلى السيرة الإبداعية للمخرج بازوليني ونهايته المأسوية كمتكف مبدع، إذ اغتيل سياسيا عام 1975 على خلفية أعماله السينمائية الجريئة، خاصة فيلمه الأخير «سالمو» الذي سخر فيه من أسسطة الإيطالية وزمورها الفاشية المتعلّقة بشخصيات السياسي ورجل الدين والقاضي والرسمالي الذين عملوا على تحويل البشر إلى مجرد آلات وفق أهداف وهمية لا تتركها إلا تلك الشخصيات. وأوضح بدور أن بازوليني عبر عن إبداعاته في أشكال عديدة في السينما والشعر والرواية والنقد والرسم، وكان على خلاف مع العديد من المفكرين الذين وقفوا ضده وحاربوه، ولم يكن مفكرا ملظرا ومجزّرا بل كان يكتب من خلال تجربة وجودية مباشرة ملموسة دراماتيكية جديدة، عبر أفلام أثارت ضجة لجرأتها إجتماعيا وسياسيا ودينيا ورسخت اسمه في طليعة جيل ما بعد المخرج الأشهر فليلبي. وتزامنت أعمال بازوليني السينمائية في سبعينات القرن الفائت وأبرزها «طوبو قبيحة» و«طوبو صغيرة»، و«أوديب ملكا» مع إصداراته الشعرية وروايتيه «حياة قاسية» و«أطفال الحياة».

بعد عرض لقطات من فيلم «ميديا» أوضح المحاضر أن بازوليني يميل في معظم أفلامه إلى استخدام لون الأرض، الأقرب إلى لون بشرته الجسد، لذا لا يخلو أي فيلم من أفلامه من استعراض للبيوت الطينية التي تظهر كأنها امتداد للأرض والإنسان وهو جزء من هذه الأرض. ويحرص بازوليني في معظم أفلامه على استخدام لقطات طويلة وياثورامية للوجود والمياني، كما يحرص على التنوع في الملابس واستخدام قبعات واقّعة غريبة مثل أفلامه عن المسيح وميديا وأوديب وليال عربية وغيرها، موضحا أن المخرج الإيطالي كان يعيش الشرق لثراءه اللوني لذا صور معظم أفلامه فيه، مثل سورية واليمن والهند وإيران والمغرب العربي.

أضاف بدور: «إن بازوليني يعوص بنا في أفلامه إلى عالم مفرّغ أو حالم بطرق تدبّية وغير مباشرة إذ يعتمد أسلوبيا فريدا هو الجدل، ويجعل شخصوه ترى الأمور ونراها نحن أيضا من وجهة نظرتها، ويعتمد أحيانا التوشيش على رؤيتنا للحوادث بالصور عبر الشمس وجودية يعود إلى الأفقية الثالثة قبل الميلاد، كما في مشهد قتل أوديب لأبيه وجراسه، وكما في فيلم ألف ليلة وليلة الذي ترى فيه جثتا معلقة على المشانق في الصحراء».

ختم بدور محاضرتيه بالإشارة إلى الأهمية التاريخية لقلعة حلب التي جذبت بازوليني وإمثاله للصورير فيها، إذ صنفت على لائحة مواقع التراث العالمي لليونسكو عام 1986، مؤكدا على أن قلعة حلب هي إحدى أقدم وأكبر القلاع في العالم، والتل الذي تنهض فوقه القلعة يعود إلى الأفقية الثالثة قبل الميلاد، وتعاقبت عليها العديد من الحضارات وتم مؤخرا نتيجة الحفريات توثيق معبد يعود إلى العصر البرونزي داخل القلعة وهو معبد الإله «حدد».

الدكتور نزيه بدور أستاذ في كلية العمارة في جامعة البحث وياحث في تاريخ الفن وعلم الجمال وعضو في جمعية العاديات، قاص رواياتي له

البناء

الدين يتعايش مع الفكر العقلاني. لكن عندما ثار الفرنسيون لم يبق هناك لدى الإنكليز حل يتشكون في عقيدة سقوط الإنسان من عليائه وعجزه الكامل عن فعل شيء حيال هذا السقوط. ثم قارنوا علوم عصرهم وأخلاقياته بعلوم القدماء وأخلاقياتهم، فوجدوا أن ثمة تقدما قد حدث بالفعل. بانوا متأكدين من أن العلوم واستخدام العقل هما السبيل إلى مجتمع أرقى وأفضل. التقدم لا يأتي هبة ومنحة من السماء ينزل بهما الوحي. يأتي التقدم بفضل كد الإنسان واستخدامه لعقله.

ما جعل للثورة الثقافية تأثيرا سياسيا واجتماعيا هو ظهور المفكرين، أو فلاسفة المقاهي، بحسب ما كانوا يسمونهم. هؤلاء المفكرون كان تأثيرهم السياسي مباشرا، إذ لم يكونوا فلاسفة تقليديين في أبحاث أكاديمية عاجية يتكونون بلغة لا يفهما أحد. كانوا أصحاب قلم وعلماء وفلاسفة وأبناء. كانوا جزءا من الحالة الإجتماعية والدينية والاقتصادية. نجحوا في خلق رأي عام بين الطبقة المتوسطة القريبة من الناس.لذلك،حين بدأوا في مهاجمة السلطة والكنيسة التفت حولهم عامة الشعب.

الكنيسة الكاثوليكية التي كانت لا تزال تعيش في كنف العصور المظلمة، والتي لم يصعبا البتة شيء من الإصلاح الديني، كانت ترفض أي تنازل ولا تقبل أي حل وسط بريضي الجماهير، وانقسم الفرنسيون إلى: إما متعصب ظلامي، أو حر الفكر. إما ساخن وإما بارد. في إنكلترا، نجح الإصلاح الديني في جعل

الدين يتعايش مع الفكر العقلاني. لكن عندما ثار الفرنسيون لم يبق هناك لدى الإنكليز حل يتشكون في عقيدة سقوط الإنسان من عليائه وعجزه الكامل عن فعل شيء حيال هذا السقوط. ثم قارنوا علوم عصرهم وأخلاقياته بعلوم القدماء وأخلاقياتهم، فوجدوا أن ثمة تقدما قد حدث بالفعل. بانوا متأكدين من أن العلوم واستخدام العقل هما السبيل إلى مجتمع أرقى وأفضل. التقدم لا يأتي هبة ومنحة من السماء ينزل بهما الوحي. يأتي التقدم بفضل كد الإنسان واستخدامه لعقله. ما جعل للثورة الثقافية تأثيرا سياسيا واجتماعيا هو ظهور المفكرين، أو فلاسفة المقاهي، بحسب ما كانوا يسمونهم. هؤلاء المفكرون كان تأثيرهم السياسي مباشرا، إذ لم يكونوا فلاسفة تقليديين في أبحاث أكاديمية عاجية يتكونون بلغة لا يفهما أحد. كانوا أصحاب قلم وعلماء وفلاسفة وأبناء. كانوا جزءا من الحالة الإجتماعية والدينية والاقتصادية. نجحوا في خلق رأي عام بين الطبقة المتوسطة القريبة من الناس.لذلك،حين بدأوا في مهاجمة السلطة والكنيسة التفت حولهم عامة الشعب.

الكنيسة الكاثوليكية التي كانت لا تزال تعيش في كنف العصور المظلمة، والتي لم يصعبا البتة شيء من الإصلاح الديني، كانت ترفض أي تنازل ولا تقبل أي حل وسط بريضي الجماهير، وانقسم الفرنسيون إلى: إما متعصب ظلامي، أو حر الفكر. إما ساخن وإما بارد. في إنكلترا، نجح الإصلاح الديني في جعل

الدين يتعايش مع الفكر العقلاني. لكن عندما ثار الفرنسيون لم يبق هناك لدى الإنكليز حل يتشكون في عقيدة سقوط الإنسان من عليائه وعجزه الكامل عن فعل شيء حيال هذا السقوط. ثم قارنوا علوم عصرهم وأخلاقياته بعلوم القدماء وأخلاقياتهم، فوجدوا أن ثمة تقدما قد حدث بالفعل. بانوا متأكدين من أن العلوم واستخدام العقل هما السبيل إلى مجتمع أرقى وأفضل. التقدم لا يأتي هبة ومنحة من السماء ينزل بهما الوحي. يأتي التقدم بفضل كد الإنسان واستخدامه لعقله.

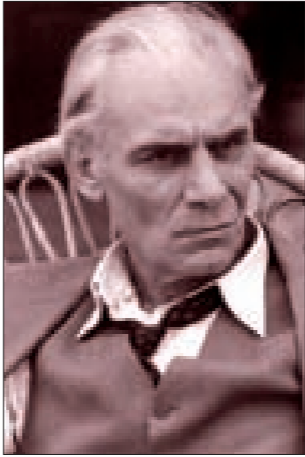
على حقوق المواطنين، وهي حقوق أساسية، بينها حق الملكية الفريدة. الدولة بمقتضى العقد الإجتماعي، تحمي أملاك الناس، وتصدر القوانين لخدمة الجميع. تأثير لوك في فرنسا كان خطيرا. جاء عن طريق كتابات فولتير وروسو الذين أدت مناقشتهمها لحكم المطلق إلى قيام الثورة الفرنسية. وبالنسبة إلى الجانب العقلي، كان لوك أول الفلاسفة التجريبيين المحدثين. العقل، على ما يقول لوك، ليس فيه شيء موروث. صفحة بيضة مثل صردغ الفت أو مثل قلب المؤمن. وإن لم يعد قلب المؤمن أبيض ظلما كنا نعتقد. عليه، يقوم الشخص بتسجيل الأفكار الآتية من نتائح التجارب التي يمر بها.

ليست هناك مبادئ عامة أو أخاق يمكن أن نعتبرها جاءت بالفريضة أو الفطرة. العقل لا يعرف شيئا إلا عن طريق الحواس. الذاكرة وزرع المعلومات وتصنيفها يولد الأفكار المعقدة.

لسفطة لوك التجريبية كان لها تأثير كبير في العقيدة الدينية. ما يقل من العقيدة الدينية هو ما يتوافق مع التجربة الإنسانية. لذلك، عكست الفلسفة التجريبية لدى لوك فكر القرون الوسطى واستبدلت بفكر القرن التاسع عشر البراغماتي، أو الجعقي، الذي لا يحترم سوى النتائج.

من طالع عصر الأنوار اسحق نيوتن (1642-1727)، مكتشف قانون الجاذبية ومبادئ حساب التفاضل والتكامل ونظرية الضوء، قبل بلوغه سن الرابعة والعشرين. كان أستاذا في جامعة كامبردج في السابعة والعشرين، وهو مؤلف المبادئ الرياضية

إيطاليا تستعيد ذكرى الممثل جيان ماريا فولونتي



احتفلت الأوساط والمؤسسات السينمائية الإيطالية بالذكرى العشرين لغياب الممثل الإيطالي جيان ماريا فولونتي الذي توفي عام 1994 عن 61 عاما أثناء تصوير دوره في فيلم «نظرة عوليس» للمخرج الراحل أنغيلوبولوس. واشتهر تحديدا مثل فرانسيسكو روزي واليو بترى وجوليانو مونتالدو وجيلو بونتكورفو وسواهم. ارتبط إلى حد كبير بشخصية جيان ماريا فولونتي كممثل كبير قادر على أداء الشخصوخ المتنوعة المركبة بأرفع درجات الأداء.

أدى فولونتي شخصية العامل الإيطالي فانزيتي في فيلم «ساكو وفانزيتي» للمخرج فرنسيسكو روسي، وبدور العامل «لولو ماسا» في فيلم «الطبقة العاملة تذهب إلى الجنة» ليليو بيبيري، وبدور ضابط شرطة في «تحقيق مع مواطن فوق مستوى الشبهات»، ليجنيري أيضا، وبدور «إنريكو ماتيه» في الفيلم المشهور «قصبة ماتيه» لروسي، وبدور زعيم المافيا «لاكي لوتشيانو» في الفيلم الذي يحمل العنوان نفسه من إخراج روسي أيضا، وبدور الدو مورو رئيس الوزراء الإيطالي الذي اختطف وقتل عام 1978، في فيلم «قصبة مورو» للمخرج جوسبيي فيرارا، وبدور الطبيب اليساري المنفي «كارلو ليفي» في ملحمته روسي السينمائية «المسيح توقف في بومبي»، كما اضطلع ببطولة عدد من أشهر الأفلام السياسية لمخرجين فرنسيين ومن أميركا اللاتينية وأسبانيا، مثل دوره كزعيم للعامل الصربيين في الفيلم التشيلي «رسائل من ماروسيا» لميغيل لينين، وفيلم «تيرانو بانديراس» للمخرج الإسباني خوسيه لويس غارثيا سانتشيز، وكان آخر الأفلام التي اضطلع ببطولتها عام 1993.

توفي فولونتي فجأة بنوبة قلبية في 7 كانون الأول 1994، فاضطر المخرج اليوناني ثيو أنغيلوبولوس إلى إسناد دوره إلى الممثل السويدي الكبير إيرلاند جوزفسون. لكن فولونتي ظل في ذاكرة عشاق سينما الفكر والفن، خاصة السينمائية المعارضة التي تسلط الأضواء على الفساد السياسي وتفضح الانتهاكات على صعيد القانون في إيطاليا. إلى يومنا هذا لم تعوض السينما الإيطالية غياب فولونتي وموهبته الكبيرة التي مكنته من القيام بأدوار شديدة التنوع، من مجرم قاتل، إلى زعيم صمائية، إلى طبيب ومناضل يساري، إلى عامل نقابي، ثم نيسا لشركة النفط الحكومية الإيطالية «ماتيه» الذي قتل في ظروف غامضة. إلى ضابط شرطة قاتل في فيلم «تحقيق مع مواطن فوق مستوى الشبهات» (1970) للمخرج ايليو بترى يؤدي فولونتي شخصية ضابط شرطة يحصل على ترقية لينتقل من قسم الجريمة إلى القسم السياسي المسؤول عن تعقب الجماعات والمنظمات القوضوية واليسارية في إيطاليا في تلك الفترة. ثراه في بداية الفيلم يذبح بدم بارد عشيقته في مسكنها أثناء ممارسة الجنس معها، ثم يتعمد ترك الكثير من الأدلة التي يمكن أن تقود الشرطة إليه باعتباره القاتل، لكنه «مواطن فوق مستوى الشبهات»، لماذا؟ لامتلاكه القوة والنفوذ، وهو أيضا «ابن المؤسسة» وخادها الأمين، ومن غير الممكن الاستغناء عنه أو التضحية به، حتى بعد أن يتضح يقينا أنه هو الغافل.

يمكن القول إن الفيلم هو فولونتي وفولونتي هو الفيلم، فهو يظهر في جميع لقطاته، وكثير منها لقطات قريبة تحصر وجهه أو الجزء الأعلى من جسده أثناء تحركه الذي لا يتوقف قط، متباها بنفسه، ومستعرضا قوته، وتدرجيا تعلقو حلة البارانونيا المسيطرة عليه لتبلغ ذروتها. فقة الممثل الكبيرة أمام الكاميرا

لا تهتز ثانية واحدة، نظرات عينيه التي يكفي أن يرمق بها من زاوية أحدا من المارة داخل مقر الشرطة أو يشير بها إلى آخر أن يفعل ما يريد، لكي تتحقق إرادته. الوحيد الذي يتحده الطالب القوضوي الذي يبريد فولونتي في البداية إلياسة تمهة القتل، ثم يكتشف أنه لو فعل لما بقيت ثمة قيمة لمواطن فوق مستوى الشبهات، أي أنه ينبغي أن يظل في بؤرة الشك من دون أن يجرؤ أحد على ملاحقته.

أداء فولونتي قد حقّا، في فيلم يسيطر عليه تماما بشخصيته القوية وحركة جسده الرشيقة وأدائه العام الذي يتباين بين الضعف والذلة أمام العشيقية التي تعتبره «ليس رجلا بها فيه الكفاية» ونهيته وتحقره وتلعب وتلاعب به، وجرورته أمام أقرانه في الشرطة، وأمام الشباب اليساري المعتقل، وأمام أجزءة الإعلام.

إحياء لذكرى هذا الممثل الكبير وأدواره الخالدة عرض متحف السينما الوطني في روما، نسخة مرمرمة جديدة من فيلم «أبواب مفتوحة» للمخرج جيانا اميليو (1990). ولا شك في أن الاختيار ممتاز. فالفيلم تحديدا يتحازن إلى مفهوم العدالة الإنسانية التي قد لا تقبل بتطبيق القوانين العادية من دون بحث واستنصاء وتدقيق مرقف، خاصة إذا كانت «قوانين الفاشية» التي وضعت في زمنه ليقتل زميله الذي حل مكانه في وطنه، ولدى عودته إلى باسم إقرار النظام وأخضاع الفرد للدولة. ويؤدي فولونتي في هذا الفيلم دور القاضي ذي فرنسيسكو الذي يرفض الحكم بالإعدام على رجل اعترف بأرتكاب ثلاث جرائم طالبا هو نفسه إصدار الحكم عليه بالإعدام على الفور!

يبدأ فيلم «أبواب مفتوحة» في زمن الفاشية الإيطالية بزعماء موسوليني 1937، وتصور حوادته في بالرمو عاصمة صقلية حيث نتاج «توساسو سكالبا» وتنتصر وجهة نظر «دي فرنسيسكو»، وتنتهي المحاكمة بإسقاط ويحتج أمام رئيسه على طرده من العمل رغم ولاءه وأخلاصه الشديد للفاشية، وتنتهي المناقشة بأن يخرج «سكالبا» سكبنا يقطع بواسطته رقبة رئيسه ثم يتجه إلى مكتبه ليقتل زميله الذي حل مكانه في وطنه، ولدى عودته إلى منزله، يصلحب زوجته في جولة بالسيارة ثم يتوقف في مكان خال حيث يصطحبها ثم يقتلها.

بعد الانتهاء من ارتكاب جرائمه الثلاث يذهب «سكالبا» إلى بيته، يداعب ابنته الصغيرة ثم يستلقي على الفراش في انتظار وصول رجال الشرطة. النظام الفاشي القاشي يفضي بالضرورة إلى إعدام «سكالبا» على جرائمه، لكن القاضي «دي فرنسيسكو» لا يلجأ إلى الطريق السهل بل يسعى إلى كشف العلاقة بين الجرائم الثلاث، يستجوب عشرات الشهود، يشك في رواية المتهم وروافعه، يعرض لمخطوط من زملائه، من جانب الحاكم والرأي العام المؤيد للفاشية الذي يعطس بضرورة إقرار النظام بالحسم والصرامة والحكم بإعدام الرجل، لكن «دي فرنسيسكو» لا يتزحزح البتة عن موقفه، بل يعلن لزملائه بصراحة أنه يرفض عقوبة الإعدام التي يعتبرها طقسا من الطقوس البربرية. «ودي فرنسيسكو» أرمل، يعيش مع ابنته الصغيرة ويشعر بالوحدة، لكنه رجل مبادئ إنساني الزعة، يلتصص الدفء قرب عائلته فيتعرض لمزيد من الضغوط من أفراد عائلته الذين يطالبونه بإبانتها وولائه للنظام الفاشي والحكم بإعدام «سكالبا». الوحيد الذي يتفهّم موقفه هو والده المسن والقاضي المتقاعد. أثناء المحاكمة ينطق أحد أعضاء هيئة المحلفين، وهو فلاح ظل صامتا طول الجلسات، معلنا رفضه إدانة الرجل والحكم بأعدامه، ويتفق مع القاضي في ضرورة التمسك بالمثمل العليا لتحقيق العدالة. وعندما يزوره «دي فرنسيسكو» في بيته يكتشف أنه يمتلك مكتبة ضخمة مليئة بالكتب، وأن الرجل منقّف واسع الإطلاع، ويفضل تمكّن ضد الفلاح المنقّف من إقناع باقي المحلفين، تتنصر وجهة نظر «دي فرنسيسكو»، وتنتهي المحاكمة بإسقاط العقوبة عن «سكالبا». ومع ذلك يشعر «سكالبا» بالإستغزاز من سلوك القاضي الذي يريد إنقاذ عتقه من حبل المشنقة، فهو اعترف بجرائمه ويريد الخلاص بالموث، وإيمانه المطلق بالمعتقدات الفاشية، بينما يرفض القاضي منظومة القانون الفاشية ويمكن من هزيمتها رغم ما يتعرض له من تهديدات خفية.

جيان ماريا فولونتي يؤدي دور القاضي ويعيش الشخصية على أكمل وجه ويضفي عليها الكثير من الرصانة والبهوء والسحر، مع قبايته الواضح المعير للإعجاب، مصرا على قطع الطريق حتى نهايته. يواجه ظلما كاملا بهوء تام ومن غير أن يرتجف أو يباليغ في الأداء أو الكلام والحركة، فهو ليس «مناضلا» مسيسا، بل رجل قانون مخلص للمفهوم الإنساني الذي يراه صحيحا في تطبيق القانون.

في نهاية الفيلم نعرف من خلال المعلومات المنشورة عما وقع في القضية الحقيقية التي اقتبس عنها الفيلم، أن الإدعاء سوف يستأنف الحكم، وأنه سينجح في استصدار حكم بالإعدام على الرجل، وسوف ينقل القاضي «دي فرنسيسكو» إلى مدينة أخرى، فالفرد وحده ليس قادرا على هزيمة نظام كامل، وتلك هي الرسالة التي تتكرر في أفلام التيار السياسي في السينما الإيطالية.

ثقافة